جيلنا الحائر

بقلم الأستاذ صلاح الدين شريف

لعلنا نعلم جميعا أن فترة الشباب ، هى فترة القلق والحيرة والتطلع . ففيها ترجم عقول ابنائه عواطف شتى واحساسات غريبة ونزوات قاهرة . وهو فى غمار هذه التيارات ، يضطرب تفكيره وتتردد ميوله ، وتتراقص أمام عينيه أهدافه وأحلامه على غير وضوح أو استقرار .

ولا موضع للعجب فى هذا ، فالشباب حديث عهد بالحياة يبدو له كل شىء فيها جديدا غريبا ، يلتهب بالثورة و يعتلج بالرغبة ، ثورة الحياة المتدفقة فى شرايينه على ما لقى من حوائل وما يضيق به من أوضاع . ورغبة الوجدان المشبوب فى التعلق بالآمال الكبار ، ولو جارت عليها مرارة الواقع !

فالشباب إذن ابن العاطفة ، يزل مختارا على حكم الهوى ، يستسلم للغرائز و يرحب بالشهوات ، و يقنع بالحلم ، و يفرق من الحقيقة و ينفر منها ، وهو فى مزاجه هذا ، معذور إلى حد مادام يحس فيه حق القوة عليه ، وضريبة الطبيعة منه .

هذا الشاب ، الذى يملئ عاطفة و يفيض احساسا ، وتريد له إرادته كيانا ووجودا ، و يطلب لنفسه إيمانا يرد له الشك عقيدة والحيرة يقينا ، من حقه أن يسائل نفسه ، بل يسائل قادته عن حقيقة حاضرة وأمانى مستقبله ومصير أسرته ومجتمعه .

من حقه أن يقول لهذا المجتمع الذى أنجبه : أين مكانى فيك وما حقيقة موضعى منك ، وماتبغى إزاء مرضك وضعفك وسائر ما تشكو منه "

لشد مايعيب الكبار على هذا الشباب تخاذله ورخاوته وضعفه ، و يطبع التشاؤم حكمهم فيقولون ، ان شبابنا طبع على الجبن ، يكاد يقتله اللهو ، وتذهب بنضرته الشهوات !

ولكن الواقع يأبى إلا الأنصاف والحق فينص الحكم و يقول : إن مجتمعنا هو المسئول إن ذلك لا الشباب . نعم ، هذا المجتمع بألوانه واتجاهاته ونزعاته .

و إلا فهل منا من ينكر تلك الاعانى المرذولة المختثة ، التى تشيع فى النفس الذلة والهوان و الحسرة ؟

وهل منا من ينكر نزوة التأنق الشكلى الذى يطبع ثقافتنا ، و يحدد اتجاهات أفكارنا ، و يحصرنا فى نطاق ضيق من التوافه والأوهام ؟

أو منا من ينكر نزعات مرذولة من أخلاقنا ، تصور لنا الاستخفاف والتهاون وعدم الاكتراث ، حتى فى الخطير من شواغلنا وهمومنا ؟

لقد طبع هذا الضعف العام ذوق شبابنا ومثله ، فأضحى ذوقا رهيفا يميل إلى الرخاوة ، و يستمرئ النعومة ، و يستطيب كل ما هو رقيق حالم ولطاف !

إن شبابنا معذب فى حاضره ، معذب فى ماضيه ، معذب فى أسرته و بيته ، مهدد

بالعطالة والتشرد فى مستقبله ، فهو مكره على أن ينفس عن صدره ما يفيض من همه ، فينغمس فيما يعيبه كهولنا عليه .

شبابنا اليوم حائر ، لا يعرف هدفه ولا يحسن توجيه العزم إلى غايته ، لأننا لم نحسن توجيه قوته ، ولم ننظم هذه القوة لتنفع شبابنا ، وتنفع معه الوطن المصرى .

لقد أهملنا حركات الشباب ، بدعوى انشواغل العارضة أو الظروف الخاصة ، على حين كانت أصداء هذه الحركات تتجاوب فى الافق العالمى وتخلق دولا ونظما وثقافات قلبت الاوضاع الشائعة ، وبدلت مجرى التاريخ ! . .

لقد راد هذا الجيل من الشباب حيرة على حيرته ، أننا فى الخمسين سنة الأخيرة ، لم نختر طريق التطور الطبيعى ، بل اخترنا طريق الطفرة المنفرجة الخطوات على غير أساس أو نظام ، فكانت النتيجة اضطرابا فى الأوضاع ، وتناقضا مرا فى المظاهر والأشكال .

وهكذا احتوت مدننا أحياء الارستقراطية التيحة المترفة ، متاخمة لمقاذر الأحياء الوطنية وخرائبها ، لا يفرق بين البيت الذى تدار مطابخه وحماماته وسائر مرافقه بالكهرباء وذلك " الحجر " الساذج المبنى بالقصب والطين والصفيح ، سوى جولة على القدم أو جولتين ، وفى كل من الحيين ينشأ شباب وشباب ، تفرق بينهما الاوضاع ، وتضللهما غرابة هذا الجو الاجتماعى المضطرب الحيران !

وجامعاتنا الحديثة ، ذات الأبنية الفخمة والأبهاء الرائعة ، وذات الاستقلال الادارى والحرية الثقافية ، ما زالت تعاصر عهد " الكتاتيب " مع أن مسافة لزمن بينهما تبلغ عشرات الاجيال !

بل أمر من ذلك وأدهى ، أن تفرق نظم التربية عندنا بين الجنسين ، صغيرين ناشئين ، لتجمعهما من بعد على مقاعد الدرس الجامعى كبيرين مراهقين !

بل الأكثر من ذلك غرابة وألما ، أن يجهر اليوم عميد جامعى كبير ، فينعى لنا الثقافة الجامعية عندنا ، ويعيب قصورها وضعفها ، لأن الروح الجامعى بيننا مفقود فما تربط بين الأساتذة والطلاب رابطة من تفاهم أو انسجام أو تلاق فى الميول والأفكار ، مع أن هذا التفاهم والاتصال من لوازم الروح الجامعى العتيد ، بل من لوازم تخليق شباب عامل سليم .

والفتاة المصرية التى تحيا فى القرية مكبلة بقيود البيئة ولوازع التقاليد ، وتتنفس فى جو من الحفاظ والكبت ، لا تفرق بينها وبين شقيقتها ساكنة المدينة التى تسير سافرة ، وتتحدث باللغات الأجنبية ، وتسوق السيارة وتمتطى الطيارة وتضيق بنطاق البيت فتطالب بحقوق السياسة والتشريع ، لا تفرق بين الاثنتين من فواصل الزمان والمكان ، غير بضعة أميال أو مسيرة ساعات .

وشبابنا مطالب أن يتفاهم مع كل من " الطرازين " لأنها الشطر الآخر من شركة العمر ولو شق بهما جميعا .

وقد تكون هذه الفرقات التى سردت ، هى أقل ما يعج به مجتمعنا الحاضر ، ويشقى به جيل اليوم ، فهنالك أمثلة كثيرة فى كل ناحية من نواحى حياتنا ، علتنا أننا لم نضع لأنفسنا منهاجا فى تطورنا ، ولم نشرع لنهضتنا خطة مرسومة تجرى عليها ، فتفقدنا التوازن وأعوزنا الانسجام ، وقذفنا بأبناء الجيل فى حيرة لا تطاق .

ما سبيلنا الى الخلاص من هذا الضلال ، وما وسيلتنا الى إنقاذ الأجيال القادمة من أسر هذه العثرات .

ما سبيلنا الى تخليص هذا الشباب من مآسى التفكك العائلى التى تقع عليه عيناه فى مطلع كل يوم ، فيرى الأسر المصرية تطيح بها مهازل الزواج والطلاق ، ويرى الأبناء المشردين قد ملك قيادهم آباء جهلاء ، تنكروا لرسالة الابوة ، واستنكروا حقوق البنوة ، وليس لهم من رادع فى القانون ، يسلبهم كنزهم الذى عموا عنه وتجهموا له .

سبيلنا السوى الى نعمة الخلاص من هذا كله ، يلخص فى أمرين :

تربية اجتماعية وتشريع اجتماعى .

فنحن شعب أحوج ما نكون الى تربية اجتماعية سليمة ، تعيد إلينا خصائصنا ومقوماتنا وتحى لنا شخصياتنا ، وتفتح أمامنا باب الأمل فى عهد جديد .

هذه التربية هى وسيلة تكوين أمة تشعر بالتجارب بين عناصرها و بالتفاهم بين شبابها وفتياتها ، و بالمساواة والحرية يشيعان بين أفرادها .

فيجب أن نلق هذه التربية فى البيت وفى المدرسة وفى الجامعة وفى مؤسسات المجتمع وتشكيلاته ، حتى نخلق لنا الجو الاجتماعى الذى ينقصنا .

ولا يمكن أن تنهض روح هذه التربية إلا على قواعد ثلاث :

مثل أعلى تستدد اليه كل الجهود ويستهان فى سبيله بأثمن نعم الحياة . وأخلاق قوية عالية تحفزنا على الدوام ، إلى أن نضحى لتحقيق مثلنا المنشود . وجماعات عملية منظمة ، وتشكيلات اجتماعية منسقة ، ترسم لنا الخطط وتحدد أمامنا الأهداف وتستهديها فى جهادها جماعات الشباب . و بالجملة برامج اجتماعية جديدة للهيئات السياسية عندنا .

أما التشريع الاجتماعى ، فهو لازمة أخرى من لوازم نهوضنا بل وجودنا . فما دامت تنقص الكثيرين منا شهامة الضمير ورجولة الأخلاق ومعنى تقدير المسئولية فلا مفر من أن نتجه إلى التشريع ليكمل نواحى النقص فى تربية نفوسنا وأخلاقنا .

نريد أن نحل به مشاكل الطلاق وتعدد الزوجات ، وأن نسلب به ولاية الآباء الآبقين من واجبات الأسرة ، المنكرين لحقوق الزوجية .

نريد أن نرد به الأوضاع إلى استقامتها ونرسمها كما يفهمها مجتمع يشق بالخروج على شعائره ويئن من إهدار آدابه وعُرفه .

و بمعنى آخر ، نريد أن نرد المرأة الى وظيفتها التى حفها لها الله لتكون زوجاً وأماً تحمل وتلد وترضع أولادها وتتعهد شؤون البيت وتربية الأولاد ، وتتلقى فى معاهد العلم الثقافة النسوية التى تؤهلها لهذا المركز .

اذا تحقق لنا هذان الوضعان ، وضع التربية ووضع التشريع ، أملنا فى مستقبل باسم لأجيال مصرية سليمة من هذا القلق وتلك الحيرة وذلك الشذوذ ، فنهدى المجتمع المصرى شابه الأمثل وشابته المثلى .

صلاح الدين الشريف